التواصل اللغوي والواقع الإنساني من منظور الفلسفة التحليلية

أ.م.د. نوال طه ياسين
كلية الآداب/ جامعة البصرة

المقدمة:

نظراً، لتعقد الحياة الحديثة، وكثرة وسائل الاتصال وتنوعها، لم يعُد الاهتمام بالتواصل منحصراً في المجال المرتبط بتبادل المعلومات وتقنيات تبليغها وايصالها وحسب، بل أصبح الإنسان في أمس الحاجة إلى امتلاك مهارات التواصل اللغوي. وبالفعل هناك علاقة وثيقة بين اللغة والتواصل وهذه العلاقة مهدت لوجود مفهوم جديد هو مفهوم التواصل اللغوي الذي يقصد به نقل المعاني بين المرسل والمرسل إليه باستعمال اللغة، فعندما يتصل الإنسان بغيره اتصالاً لغوياً بغية التعبير عن ذاته ونقل أفكاره وانفعالاته فهو إما أن يكون متحدثا، أو مستمعاً، أو كاتباً، أو قارئاً، وفي كل هذه الحالات وغيرها يمر الإنسان بعمليات عقلية مضمونها ومادتها اللغة. لكن ينبغي ألا نغفل أن للغة استعمالات أخرى الى جانب اعطاء معلومات واقعية وليس من أحد أن يدعي أن هذه الاستعمالات غير مهمة .

وبما أن مسألة التواصل اللغوي من بين أهم المسائل المرتبطة بالإنسان، لذلك أشارت النصوص إلى الطابع الإشكالي الذي ميّز دلالة الإنسان وما أنتجه من أنظمة رمزية عبّرت عن أشكال حضوره في العالم، كما ساهمت في تحديد علاقته مع ذاته ومع الآخر. فاللغة بوصفها شكلا تعبيرياً تقف إلى جوار الأشكال التعبيرية الأخرى فتكشف عن ذواتنا وعن وجودنا للآخرين. وبما أن الإنسان صانع اللغة ولكنه أوّل ضحاياها. كان لزاماً على الفلاسفة أن يبدعوا في المناهج التي تجلي غموضها. واذا كان مفهوم التواصل من المفاهيم المركزية المتداولة في الفلسفة المعاصرة، إذ أصبح يشكل نظرية فلسفية مستقلة بذاتها، وله مرجعية محدده هي مرجعية هابرماس الفلسفية، لكن اذا كان البعض يعتقد أن ليست هناك مادة معطاة في الفلسفة اسمها التواصل ماعدا محاولة هابرماس، فأن المحاولة التحليلية تثبت أنها ناقشت هذه الفكرة وبأدواتها اللغوية أيضا. ولذلك سيتم تسليط الضوء في هذا البحث على مشروع هذه الفلسفة الرائد، من خلال التركيز على الهم الذي حركهم وهو: كيف يكون التواصل اللغوي بالدقة الممكنة؟ باعتباره الإشكال الذي اعتزمت هذه الفلسفة الإجابة عنه من خلال أبرز ممثليها وهم رسل فتجنشتين آير ستيفنسون... وغيرهم. ولا ينبغي الاعتقاد من عنوان البحث أنه سيتم تناول مسألة التواصل كما لو كانت موضوعا فلسفيا بحتا وحسب. بل يتم تناولوها من منظور تداولي، بوصفها فعلا اجتماعيا، اذن هناك مشكلات فلسفية، اجتماعية، نفسية، جمالية، وبيولوجية في موضوع التواصل اللغوي .

أولاً- ما الفلسفة التحليلية ؟

حملت الفلسفة المعاصرة عدة فلسفات، غير أن أبرزها الفلسفة التحليلية التي طغت على القرن العشرين الأمر الذي حدا بمورتن وايت أن يطلق عليه عصر التحليل. فما الفلسفة التحليلية وما اتجاهاتها الرئيسة؟

يعني مصطلح التحليل تفتيت أو فك المركب الى أجزائه التي يتكون منها، وعملية التحليل-من حيث هي منهج فلسفي- قديم قدم الفلسفة، ولكن مع بداية القرن العشرين أحدثت الفلسفة ثورة للبحث عن المعنى وكان مور ورسل ثم فتجنشتين قادة الثورة الفلسفية التي عرفت باسم "الفلسفة التحليلية"[١]، وهذه الفلسفة لا تكمن أصالتها في أنها تقدم نظريات جديدة، إنما في كونها تضع الفلسفات في موضع التساؤل، فهي فلسفة في الفلسفة[٢].

واذا تم اعتبار الفلسفة اللغوية نوعاً من الفلسفة، فإنها تصبح مرادفة لمصطلح التحليل اللغوي، أي انهما منهجان يعنيان بحل مشكلات فلسفية عن طريق العناية بالاستعمال العادي للكلمة ترتبط بالمشكلة المطروحة للبحث، لذلك يعتقد

الفيلسوف اللغوي بإمكانية حل مشكلات فلسفية عن طريق فحص منطق التعبيرات العادية، التي تستعمل في مناقشة هذه المشكلات، مثل فحص الاستعمال العادي لكلمات مثل "شك"، "يقين"، "معرفة" في حالة النزعة الشكية"[٣].

ومما تجدر الإشارة إليه الى أن هناك تفاوتاً في دور الفلاسفة في تفعيل التحليل اللغوي، وإن كان هناك تفاوت في دور الفلاسفة لتفعيل التحليل اللغوي، فذلك يعود الى "أن ما يُعد فلسفة تحليلية هو واسع النطاق، إذ يوجد خلاف خطير في الفلسفة التحليلية ليس فقط على جماليات فنية ولكن على النقاط الرئيسة من هذه الفلسفة، بما في ذلك طريقة التحليل والغرض منه"[٤]. ويبدو أن آير يومئ الى أن الاختلاف يقع بالتحديد على نوع اللغة، بمعنى هناك من الاتجاهات ركزت على تحليل اللغة الرمزية (الاصطناعية)، ومنها من أكد على تحليل اللغة العادية، ولكن هذه الاختلافات لا تعني عدم وجود قواسم مشتركة بينهم، والقاسم المشترك يتمثل بتحديدهم مهمة الفلسفة التي هي تحليل معنى اللغة ورفضوا النظرة التأملية للواقع، والسؤال عن الكون، أو معنى الحياة لأنهم يعتقدون ليس لأحد أن يشرح اللغة التي لا يمكن توضيحها، ولذلك أنزلوا جام غضبهم على الفلسفات التي تخبر الناس كيف ينبغي أن يتصرفوا[٥].

ولعل الفكرة الكامنة وراء رؤاهم الارتيابية من الفلسفات التقليدية "هي أن الفيلسوف لا يمكنه اكتشاف حقائق جديدة عن الواقع، لأن اكتشافات من هذا النوع يمكن أن تُدلي بها علوماً معينة، أما دور الفيلسوف فيقتصر على تحليل وتوضيح ما هو موجود في الواقع العملي"[٦]. وكان هدفهم هي فك عقدة المشكلات الناجمة عن الاستعمال غير الواضح للغة، بما في ذلك لغة العلماء، وبهذه الطريقة بالإمكان التخلص مما اعتبروه تفكيراً مشوشاً[٧] .

ويمكن القول أن هذا التعريف نقل الفلسفة من دور البحث عن الحقيقة، الى دور أداة البحث. فوظيفتها لا تتمثل بطرح مجموعة من القضايا الفلسفية ولكن لجعل البيانات واضحة، وهذه الوظيفة لديها ميزة إبراز أن الفلسفة ليست مصدراً للحقيقة التأملية[٨]، وهكذا يتعين أن ينحصر عملها في الأنشطة التوضيحية، وهذا يعني "أنها موضوع من ذي رتبة ثانية، فمواضيع الرتبة الأولى تتحدث عن العالم، أما مواضيع الرتبة الثانية فتتحدث عن حديثنا عن العالم، هكذا أصبحت الفلسفة –حسب تعبير جلبرت رايل (١٩٠٠-١٩٧٦م) *Gilbert* Ryle - كلاماً عن كلام"[٩]. وبناء على ما تقدم يمكن القول بأن الفلسفة التحليلية تدل على مواقف كثيرة لعل أهمها موقف مور، رسل، فتجنشتين، الوضعية المنطقية، مدرسة أوكسفورد .

ثانياً- ما التواصل ؟

إن التواصل في أصله الاشتقاقي يعني تعميم رمز أو علامة أو شئ ما، أي جعله عاماً ومشتركاً بين جميع الأفراد. وبالنتيجة، فإن التواصل يفيد الانتقال من الفردي الى الجماعي. وهو أيضا يمثل تأويل البلاغات المحملة بالدلالة ومن هنا فانه يمكن أن يأخذ مظاهر متعددة منها تبادل الكلمات أو الخدمات أو الممتلكات، أو حتى تبادل النساء كما يلاحظ الأنثروبولوجيون في المجتمعات البدائية[١٠] والتواصل هو نقل المعلومات، بالمعنى الواسع جداً لهذا المصطلح، الذي يمكن ألا يتحدد بنقل الأخبار، بالمعنى الوقائعي[١١] Facts، وفي بعض الأحيان يشير-التواصل- الى نقل المعلومات من شخص الى آخر، وتارة أخرى يشير الى الوسائل التي تتم بها هذه العملية"[١٢]. وعلى الرغم من كل ما تقدم الا إن الآراء تتضارب حول تعريف التواصل الإنساني. فقد أَقَر بعض المؤلفين بتعريف واسع متمثلين التواصل طبقا لكل شكل تفاعلي بين مجموع الأعضاء الحية كيفما كانت المستويات والأشكال: رسائل كيميائية، حواسية، رمزية... وبخلاف ذلك يُضيّق مؤلفون آخرون تعريف التواصل في الحالة التي يُؤسَّس فيها التبادل على قصدية تواصلية: ونستشهد فيه بتداولية التواصل التي تركز على فعل الكلام من حيث هو فعل يتم بواسطة اللغة ويُحْدِث تأثيرات قصدية أو غير قصدية على المُحاوِر. والأكثر تضييقا أيضا هو التحليل الذي يعني

أن النتاجات المتبادلة تُولَد بهدف الحصول على أثر يتوقعه المرسِل. وفي هذه الحالات يبدو من المناسب جدا استعمال عدة مستويات لتعريف التواصل[١٣]:-

المستوى الأول:- التواصل التعبيري Communication expressive وفيه تكون الآثار متوقعة من دون تصور ذهني عن هذه الأخيرة.

المستوى الثاني:- التواصل الآلي Communication instrumental وفيه يتم بحث الآثار المحددة للإرسال انطلاقا من تصور منصب على أحداث ملموسة: مثلا الإشارة بالإصبع للحصول على شيء ما (طلب – أول) (proto – impératif) .

المستوى الثالث:- فهو ذلك المستوى المتعلق بالتواصل التداولي La communication pragmatique وفيه يتم بحث آثار الإرسال وتنظيمها على أساس تصور للوقائع الذهنية: مثلا الإشارة بالإصبع إلى موضوع ما ليس للحصول عليه وإنما لإثارة الانتباه المشترك.

واذا كان مفهوم التواصل هو الأكثر مركزية في علم الاجتماع الألماني المعاصر. ويقترن باسم هابرماس، إذ يمثل بالنسبة إليه نقلة تواصلية، يعني ذلك أن مفهوم التواصل أصبح ضروريا من أجل وصف البناء الاجتماعي. الا أنه كمفهوم تحقق في السؤال الذي طرحه آيرWhat is Communication ., مسبقا، وأصبح من الواضح جدا أن هابرماس قد وظف الوسائل التحليلية وعلى الأخص نظرية أفعال الكلام في سبك نظريته التواصلية. لكن اذا نظرنا الى التواصل كنظرية علمية نجد بدايتها تتشكل مع جورج هربرت ميد ونظريته عن التفاعل الرمزي. إذ دافع عن فكرة أن التواصل هو المبدأ المؤسس للمجتمع. وهو يفهم التواصل كتدخل للآخر في تكوين وبناء الأنا أو الهوية. إن الأنا بالمعنى الترنسندنتالي، المكتفي بذاته، لا مكان لها في عالم التواصل. فالوعي لا يتحقق خارج التفاعل الاجتماعي، خارج التواصل، وفي استقلال عن بقية أعضاء المجتمع[١٤].

إن التعبير (الكلام أو الكتابة) في وظيفته التواصلية لا يصبح كلمة منطوقة أو خطاباً تواصلياً إلا لكون من يتكلم يفعل ذلك قصدا –في بعض الأفعال النفسية- يضفي على المركب الصوتي معنى يريد ايصاله الى من ينصت اليه. وهذا التواصل لا يكون ممكنا الا اذا كان المنصت يفهم قصد المتكلم، .... أن الأمر الوحيد الذي يجعل التبادل الفكري ممكنا ويجعل من التخاطب الذي يقيم رابطة بين شخصين خطابا، يكمن في علاقة التلازم بين المعيش الفيزيائي والمعيش النفسي (اللذين ينتمي كل منهما إلى الاخر) لأشخاص في علاقة متبادلة. أن نتكلم وأن ننصت-أي اظهار المعيش النفسي في فعل الكلام وادراك ذلك المعيش في فعل الانصات- هما أمران متلازمان[١٥]، بمعنى أن التواصل يأخذ مجراه داخل "جماعة تواصلية" أو ما يسميه اللسانيون بـ"الجماعة اللسانية" التي تتكون من أعضاء نفترض أنهم يتشاطرون نفس المعايير اللسانية[١٦] .

ثالثا/ ما اللغة وما وظيفتها من منظور الفلاسفة التحليليين؟

يعرف اندريه لالاند اللغة في معجمه الفلسفي أن " اللغة بمعناها الواسع هي كل نظام من الرموز والاشارات يصلح أن يكون وسيلة للتواصل"[١٧]، أما ستيفنسون، فقد عرفها "بأنها الوعاء الذي يحوي المعتقدات التي نستعملها للتواصل في الحياة اليومية، لذلك يجب اعادة النظر في المعتقدات غير المفهومة التي يُسلم برسوخها وعلى أنها جلية[١٨]، أما آير فيقول أن اللغة "نشاط منطقي بحت، وهذا النشاط المنطقي"[١٩] بوصفه لغة بدأ الاهتمام به في وقت مبكر، لكن الانشغال الواعي والمتطرف باللغة لم يحدث إلا في مطلع القرن العشرين، عبر اهتمام فتجنشتين ورسل في علاقة اللغة بالعالم، فالفيلسوف ليس بوسعه

التغاضي عن اللغة فهي تقوم بدور هام في التفكير الجديد فكل فيلسوف، ولاسيما عقب الحرب العالمية الثانية في بريطانيا عدّ اللغة أهم شيء يجدر الاهتمام به[٢٠] .

وهذا يعني أن نظرية اللغة لا تقف خارج تخوم الفلسفة، ولابد من جعل مصطلح نظرية اللغة دراسة لتوضيح مصطلحات أساسية للغة بوساطة اللغة ذاتها[٢١]. ذلك أن عدم النظر في اللغة بصورة مباشرة سبب الكثير من الإرباك[٢٢]، وهكذا أصبح البحث في طبيعة المعنى اللغوي، أو ما الذي يجعل الجمل صحيحة أو خاطئة أصبح موضوع الفلسفة ومهمتها في آن واحد[٢٣]. فالفلسفة من هذا المنظور تعرف بأنها "معركة ضد بلبلة تفكيرنا بوساطة اللغة"[٢٤]، وبهذا التعريف قدم آير وهو فيلسوف تحليلي سبباً مباشراً متعلقاً بالفلاسفة، لأنه كان على قناعة تامة بأن التحليل اللغوي للفلسفة هو ما سيصحح التفسير الفلسفي للأفكار الذي ظهر في تضارب المدارس الفلسفية، ورسمت صراعاتها تاريخ الفلسفة .

لكن نظراً لصعوبة تعريف اللغة فانه من الضروري التركيز على الجانب الوظيفي للغة، وضرورة التمييز فيه بين عدة وظائف لان للغة بالفعل لها وظائف عدة فما وظيفة اللغة؟ ان الوظيفة التي حددها أوجدن وريتشاردز للغة في كتابهما معنى المعنى نجد أنهما يقولان: أن الكلمات لا ترمز الى شيء إلا عندما يستفيد منها المفكر فهي مجرد أدوات تعمل على تسجيل الاحالات، ولكن إلى جانب هذا الاستخدام المرجعي الذي يعكس الاستعمال الفكري للغة وهو بالغ الأهمية كالعلاقات بين الأفكار والكلمات والأشياء كما هو الحال في الخطاب التأملي الذي لم يشوشه حالات الخطاب الانفعالي، هناك وظيفة أخرى للغة هي الوظيفة الانفعالية، ويمثل هذه الوظيفة الخطاب الشعبي فهناك صعوبات كثيرة تنشأ من خلال سلوك الكلمات أثناء التواصل، وهو ما يجبرنا أن نأخذ بنظر الاعتبار هذه التأثيرات غير الرمزية، فالمراوغة التي تحدث بين الكلمات والأشياء هي العلاقة التي تستحق الاهتمام[٢٥].

أما بوهلر فقد ميز بين الوظائف السفلية والوظائف العلوية للغة، مبينا ان اللغة الانسانية تشترك مع اللغة الحيوانية في الوظائف السفلية وهما التعبيرية والتواصلية، الا انها تتميز عنها بالوظائف العلوية وهي الوظيفة الوصفية اي القدرة على وصف الوقائع وصياغتها في عبارات قابلة للحكم[٢٦]. لكن هذه النظرية الوظيفية التي قال بها بوهلر عام ١٩٣٤، طبقها كارل بوبر عام ١٩٧٢، اذ أضاف اليها وظيفة رابعة وهي الوظيفة الجدلية (اللغة الحجاجية)، وهذه الوظيفة تمكننا من ابتكار النقد الواعي، والانتخاب الواعي للنظريات بدلا من الانتخاب الطبيعي، يمكننا ان نحكم على نظرية ما افضل من اخرى هنا يبدا ما نسميه " المعرفة "، ... فليس ثمة معرفة دون نقد عقلي وهذا يصب اخيرا في مصلحة المعرفة العلمية[٢٧]. واذا عدنا الى فلاسفة التحليل نجد أن رسل أشار الى أن للغة وظيفتين هما الإشارة الى الحقائق، والتعبير عن انفعالات المتكلم[٢٨]، للتواصل مع الآخرين والتأثير عليهم في بعض الأحيان، وميزة الوظيفة الأخيرة إنها اجتماعية[٢٩]. أما مع فتجنشتين فقد شكل انتقاله من الاهتمام بالجانب التركيبي والدلالي للقضايا الى الاهتمام بالوظائف الفعلية للغة وكيفية استعمالها علامة فارقة في الخط العام للفلسفة التحليلية، لأن هذا التحول أدى الى تقويض أسس الأنموذج اللغوي القائم على معيار التحقق ليحل محله أنموذج جديد يعتمد على التواصل[٣٠]. في البحوث فقال: "لا نقول من دون لغة لا يمكننا الاتصال الواحد بالآخر، وإنما نقول بالتأكيد من دون اللغة لا يمكننا التأثير في الآخرين...، ومن دون استعمال الكلام والكتابة لن يستطيع الناس الاتصال ببعضهم"[٣١]، وهكذا فتح الميدان التداولي في الفلسفة المعاصرة بإصراره على وصف استعمال اللغة استعمالاً واقعياً، لأن اللغة أداة اتصال[٣٢]، والغرض الجوهري منه إدراك الاستعمال المتنوع للمفهوم في الحياة اليومية، اثناء عملية التواصل[٣٣] .

وقد حذا ستيفنسون حذو فتجنشتين إلا أنه عمق الفكرة بصورة أكثر اذ أشار الى أن هناك غرضين مختلفين يؤديان بنا الى استعمال اللغة، فمن جهة تستعمل الكلمات كما هو الحال في العلوم لتسجيل وتوضيح وتوصيل المعتقدات، ومن جهة أخرى تستعمل الكلمات للتعبير عن الانفعالات كالتعجب، أو لخلق حالة نفسية كما هو الحال في الشعر، أو لتحريض الناس على

الأعمال واتخاذ موقف ما كما في فن الخطابة، والاستعمال الأول للغة يسميه الاستعمال الوصفي، أما الاستعمال الثاني فهو استعمال انفعالي، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن التمييز بين هذين الاستعمالين يعتمد على غرض المتكلم، فعندما يقول شخص ما (أن الهيدروجين هو الأخف وزناً) فغرضه أن يقود المستمع الى الاعتقاد بذلك وبهذه الحالة تستعمل الكلمات بشكل وصفي، أما عندما يقول الشخص (اللعنة)، فهدف المتكلم ليس التوضيح أو الابلاغ عن المعتقد، إنما يتم استعمال الكلمة بشكل (انفعالي)[٣٤]. هكذا وضع فلاسفة التحليل ثنائية، يفترض أحدهما الآخر هما التواصل واللغة، وإذا كانت الفلسفة تحليلاً للغة فكيف تبدو علاقة اللغة بالتواصل؟

رابعا. ما التواصل اللغوي من منظور الفلاسفة التحليليين؟

معلوم أن الفلاسفة اشتغلوا على موضوع اللغة والتواصل. باعتبار أن هناك منطلقات وتصورات للغة في علاقتها بالتفكير والتواصل وبالأخر. أن يكون للغة وظيفة تواصلية تقرير من قبيل تحصيل الحاصل، ولكن ما هو حديث في الفكر الانساني هو الاستعمال المنهجي والعلمي للغة والتواصل. وهذا الاستعمال لم يتم التوصل اليه الا بعد تحولات اجتماعية وتاريخية وعلمية وبعد قرون من التاويل الميتافيزيقي للغة بوصفها تعبيرا عن الفكر. فبنية التواصل تهم المفهوم الأداتي للغة، أي المستوى التداولي ذي البعد الاجتماعي، أي أن التواصل اللغوي يفترض مبدئيا الآخر، لان التواصل هو توصيل لعلامة ولمعنى[٣٥] وتتوقف خاصية التواصل الإنساني على اللغة التي تتميز عن أنساق التواصل الحيواني على عدة مستويات: فمن جهة إن اللغة تخضع لبنية هي في الآن نفسه دقيقة وغنية، وللتركيب... ومن جهة أخرى إن اللغة الإنسانية أداة تواصلية مرنة للغاية بسبب بنيتها التي تسمح بإيصال رسائل مختلفة انطلاقا من الكلمات نفسها وفي الوقت نفسه لأن الكلمات والتعابير أو الجمل هي في الغالب متعددة المعاني، وغامضة أو مبهمة وتخضع في تأويلها كثيرا للسياق. ولا تقدِّم اللغة الإنسانية خصوصياتها فحسب، لكن القدرة اللسانية خاصة بالجنس البشري. ولهذا، فإن التواصل لا يرجع إلى اللغة وحسب[٣٦].

و"باختصار هناك طرق أخرى لنقل المعلومات غير استعمال اللغة، وعلى الرغم من أن استعمال اللغة هو الأهم والأكثر إثارة للاهتمام في التحقيقات إلا أن تلك الوسائل يجب عدها من وسائل التواصل أيضاً"[٣٧] وهناك عدد كبير جداً من أوجه استعمال اللغة، التي يجب أن يتم تمييزها بعناية وتحليلها على حقيقتها، ويجب ألا توضع في كفة واحدة، والاضطلاع بتحليلها هو النشاط الفلسفي المهم، فالعديد من المشكلات اللغوية، تنجم عن أننا لم نكن واضحين حول الطريقة التي نستعمل فيها الكلمات، أو الطرق التي يجب أن نستعملها بها[٣٨].

وبناء على ما تقدم بما أن أنساق التواصل، لا سيما الحيوانية، المغايرة للغة تستطيع أن توجد. ومع ذلك، فإن قسما كبيرا إذا لم يكن القسم الأكبر من التواصل الإنساني يمر عبر اللغة، وبسبب ذلك يتطلب تحليلا مختلفا للنموذج الرمزي Modèle codique. ونستطيع... أن نميز أنساق التواصل الحيواني عن اللغة الإنسانية بالإشارة إلى أن الأولى تعود إلى الدلالة الطبيعية في حين أن الثانية تعود إلى الدلالة غير الطبيعية... (التي) تتضمن قصدية تأملية، وقصدية نقل خبر ما، وقصدية نقل هذا الخبر عن طريق معرفة القصدية الأولى[٣٩] .

وتحليل التواصل اللغوي يعتمد على مبادئ علم النفس[٤٠]، ومما تجدر الاشارة إليه أن للتواصل جانبين أحدهما يتعلق بالمتكلم والآخر بالمستمع، فكل ترميز من جهة المتكلم الهدف منه احالة ما وتوصيلها الى المستمع أي التسبب في أن تكون لديه احالة مشابهه بمعنى استثارتها عنده، وهذا يعني أن التواصل لا يحصل الا من حيث كونه يبلغ معنى معينا، بل ان تحديد التواصل يصعب القيام به من دون ادخال المعنى فيه[٤١] .

والمعنى "هو العملية التي تعبر عن استعمال الفرد لمفهوم معين لغاية ما"[٤٢]، يعتقد ستيفنسون من أجل تحديد معنى اللغة يجب معرفة استعمالها في الخطاب، إذ وضع ما يسمى الرابطة السببية أو نظرية نفسية للمعنى[٤٣] وعرفها في مصطلح

الحوافز النفسية لمن يستعملها، ففهمها يتحقق بوساطة العمليات النفسية الكامنة فيها[٤٤]، "وهي خاصية ترتيبية، وهذه الخاصية الترتيبية يتشكل معناها ويتطور بوساطة عملية معقدة من العلامات المستعملة ويتم تبادلها أثناء عملية التواصل"[٤٥].

ويتحدد معنى الكلمات من خلال الميل Tendency أو الاستعدادات Disposition المرتبطة بها، وهذا الميل يجب أن يكون موجوداً مع كل من يتكلم اللغة[٤٦]، والمفتاح المُعطى لحل لغز المعنى من خلال كلمة القوة Power، وهو مصطلح معروف عند لوك، وهو مفيد لأنه يعطي مساحة لخاصية الاستعدادات، ويقود الى فهم أفضل للمعنى بصورة عامة[٤٧]. ولكي تكون دراسة معنى التواصل اللغوي على نحو أدق، ومن اجل القاء الضوء على بعض الأسئلة العويصة المتعلقة باستعمال اللغة، قسم آير المعنى الى قسمين:-

١- المعنى الخاص بالجمل، إذ أكد على ضرورة توضيح كيف يمكن لتحليل المعاني المعطاة إلى الجمل من حيث ارتباطها مع الجمل الأخرى بوصفها مركبات تكون ذات معنى[٤٨].

٢- المعنى السياقي للعلامات الدالة التي لا يمكن فهمها بمعزل عن السياق الذي ترد فيه[٤٩] .

وهذا يعني أن المعنى بحاجة الى العلامة[٥٠]، فقابلية العلامة للتأثير بالمستمع تسمى المعنى[٥١]، وهذه العلامات لها استعدادات للاستعمال وهذه الاستعدادات تكون جزءاً من المعنى، فالعمليات النفسية من وجهة المستمع التي لها أهمية قد تكون محفزاً من وجهة المتكلم[٥٢]، وهذه الثنائية التي يلوح بها ستيفنسون للعلامة يعني أنه يربط بين الفكرة التي يسعى المتكلم للتعبير عنها بوصفه مثيراً، والصورة الصوتية التي يستجيب لها المستمع، وتنطبع وتؤثر في الحواس وهي صورة سيكولوجية واجتماعية. لذلك يقال "بأن علامة ما تكون تواصلية حينما تكون موجهة لاخبار المتلقي بشئ كان يجهله"[٥٣] ، ومعنى العلامة ربما يكون محفزاً لأناس محددين، وبناء على ذلك أن العلامة يكون لها معنى لأشخاص محددين ولا يكون لها معنى لدى غيرهم[٥٤]، وهو ما يوضح العلاقة بين سماع العلامة ورد الفعل عليها التي هي علاقة سببية لخصائص الاستعدادات التي تنطوي عليها، فالعلامة تحدث آثاراً معينة في الأذن والعين والأعصاب، إلا أن ذلك لا يعني أن الاستماع الى علامة التحفيز هو السبب الوحيد في العمليات النفسية التي تترتب على تلك الاستجابة، فمن الممكن الاشارة الى الظروف الملازمة[٥٥]، فالذوق الذي غالباً ما يُرى بأنه شكل من أشكال علامة اللغة الانفعالية لإحدى اللغات، إلا أنه غير واضح في أعين الغرباء فإذا مالت قبعة الرجل فهو تقليد يعبر عن الاحترام لتلك العلامة التقليدية للذوق[٥٦]، وما يجعل بعض البيانات تؤدي عمل ما أو توجهه رغم أنها لا تحمل المعنى الوصفي، هو الكلام في مناسبة معينة الذي يكون ذو صلة بمصالح، ورغبات، واحتياجات المتكلم أو المستمع على حد سواء[٥٧].

وتساعد العلامات على رؤية أن الإهتمام بالمعنى والإختيار المتأني لمفاهيم محددة بالمقارنة مع غيرها ربما يساعد المتحدث ليستدعي الموقف الأكثر شدة[٥٨]، لأن ميزة المفاهيم إستحضار الذات التي أعلنت بصورة صريحة أو مضمرة في الكلام، وتُرشد الناس لقيادة ذواتهم وتعديل مواقفهم، وحالاً يتبادلون التأثير، وعادة ما يكون هذا المعنى مصحوباً بإيماءات ونغمات الصوت وهلم جرا[٥٩] .

خامساً- عناصر العملية التواصلية اللغوية :-

إن المرسل، وهو الشخص الذي يعبر عن أفكاره، فقد أعبر عن أفكاري عندما أتحدث إليكم عن أحوال الطقس، هنا تكون الفكرة والرمز متطابقان، أما إن كان الحديث عن الذات ربما لا تكون الرموز متطابقة مع ما تشير إليه[٦٠] . فالجملة ، (أن نقطة تجمد الماء هي ٣٢ درجة فهرنهايت) فهي علامة دالة، أنها لا تحتوي على إشارة إلى المتكلم[٦١] . ويتحدد دوره في

عملية تركيب وتسنين الرسائل في نظام من الأنظمة اللغوية وغيرها مراعيا مجموعة من العوامل المتعلقة بالشخص المرسل إليه كمستواه الثقافي والمعرفي، وكذا الجانب النفسي. والوضع الاجتماعي حيث ينتقي من داخل الشفرة عددا من العلامات .

أما المرسل اليه، وهو المتلقي الذي يقوم بعملية فك الترميز من خلال معنى الرموز[٦٢]، وهو الهدف المقصود في عملية التواصل، وشأنه في ذلك شأن المرسل، إذ يمكن أن يكون فردا أو اثنين أو جماعة ويمكن له الاستجابة لها أو رفضها، انطلاقا من ميوله واتجاهاته ورغباته، وقد يتخذ موقف اللامبالاة من الرسالة ولا يتفاعل معها .

والرسالة، فهي تمثل المعنى أو الفكرة الذي ينقله المرسل إلى المرسل إليه، وتتضمن المعاني والأفكار والآراء التي تتعلق بموضوعات معينة وتنقلها إلى المتلقي وفق القواعد والقوانين المتفق عليها. إذ تجسد أفكار المرسل في صور سمعية في الخطاب الشفوي، أو علامات خطية في الخطاب المكتوب، أو إشارات وحركات عديدة إذا كانت الرسالة تندرج ضمن التواصل غير اللفظي . أما الرموز، فإن الفكر المرمّز encoding يحتوي على معنى، وهذه الرموزsymbols ربما تكون متطابقة مع معنى الأفكار أو المشاعر التي يرمز اليها[٦٣] . والوسيلة، إذ يشتمل التواصل على معنى آخر ذلك أن للغة استعمالات أخرى الى جانب اعطاء معلومات واقعية وليس من أحد أن يدعي أن هذه الاستعمالات غير مهمة[٦٤]، كالتعبير عن المشاعر، الرغبات، الأوامر، والأمنيات، وغيرها من الاستعمالات، ليغطي جميع الاستعمالات المتعمدة للغة من قبل البشر، فضلاً عن الهتافات الطوعية أو القسرية والحركات والإيماءات والغناء والبكاء والضحك والرقص، بقدر ما هي غنية بالمعلومات، وهكذا بالامكان توصيل الاستياء الى الآخر ليس من خلال التفوه بعبارة أنني غير سعيد فحسب، بل أيضاً من خلال الأنين أو النظرة الحزينة[٦٥] . وهكذا فلكل عملية تواصلية وسيلة ملائمة ومحددة. وقد تتعرض الوسيلة لبعض المعيقات والتشوهات نتيجة الخلل الذي قد يصيبها، التي لا يمكن لأطراف التواصل السيطرة عليها. فمسألة التواصل اللغوي الشفاهي على سبيل المثال يصاحبها تمديدات لصوت الإنسان بوصفها الأقلام والحبر والورق، وفضلاً عن ذلك، لدينا ما يصاحب العمليات الفسيولوجية بشأن استقبال الرسالة، فك الترميز من خلال المتلقي ومعنى الرموز، إذ إن عمليات الإرسال غير معصومة عن الخطأ، وقد تكون الرسالة التي يتلقاها المرسل اليه تختلف عن الرسالة التي أنشاها مرسلها في الواقع ومختلفة مرة أخرى من الرسالة التي كان من المفترض أن ترسل، اذن هناك مشكلات فلسفية، نفسية، جمالية، وبيولوجية حول العلاقة بين الخبرات والأفكار والانفعالات في موضوع التواصل[٦٦].

وهذه العناصر المختلفة المتضمنة في سيرورة التواصل: المرسل، المرسل إليه، الرسالة، الرموز، الوسيلة . ويطابق كل عنصر من هذه العناصر الستة، في إطار التواصل باللغة، وظيفة لغوية .وهذه العناصر تحضر كاملة في كل تواصل لكن بدرجات متفاوتة، وربما يهيمن عنصر أساسي على آخر وربما يعود ذلك الى تحديد وظائف اللغة في العملية التواصلية .

الخاتمة:-

لعل من أبرز أهداف التواصل اللغوي إكساب الأفراد الكفاءة التواصلية وتتمثل هذه الكفاءة بالكفاءة الفكرية والاجتماعية والتي تتضمن إدراك السياق اللغوي الاجتماعي الذي يحدث فيه التواصل بما في ذلك الدور الاجتماعي الذي يمارسه الفرد والرسائل المحملة بالرموز التي يسعى المرسل الى ايصالها ، وهذا ما يجعل كفاءة الخطاب تتحدد بترابط المعاني بين المشتركين في عملية التواصل اللغوي .

وما ينبغي الاشارة اليه ان المستقبل أو المرسل اليه ليس متلقيا سلبيا بل هو متفاعل نشط وإيجابي يجب إشراكه في الموقف التواصلي إرسالا واستقبالا ، كما يلزم مراعاة إمداده بالحوافز والدوافع التي تستثيره لاكتساب المعارف اللغوية المختلفة بدليل أنه يؤدي دورا أساسيا في فك الرموز التي يتلقاها من المرسل اللغوي ان صح التعبير .

واذا كان للغة وظائف مختلفة فان للتواصل اللغوي وظائف مختلفة أيضا منها الوظيفة التعبيرية والوظيفة المعرفية والوظيفة الافهامية. وهذا ما يجعل للتواصل أهمية بالنسبة للفرد وللجماعة والمجتمع، اذ يحدد الأدوار وبذلك يحس كل فرد بقيمته الاجتماعية، فكل دور اجتماعي يفرض علي صاحبه التواصل مع الآخرين ويحقق الترابط ولكن لا غرو أنه يحافظ على تمايز الهويات هكذا تبدو التجربة التواصلية بوصفها فناً للعيش تتمظهر بالتنوع المشهود في الأفكار المعبر عنها في قوالب لغوية، واختلافها يعني من بين ما يعني إختلاف التفكير والممارسة، وهو بدوره ينعكس على المواقف الإنسانية المختلفة، والجماعات البشرية ترى في لغتها تمثيلات لهويتها، فكل لغة تمتلك حصيلاً من التعبيرات، فالتنوع اللغوي هو الذي يعطي أشكالاً لا تُعد ولا تحصى للأفعال. وهذا ما يحدد البون الشاسع بين السمات المنطقية للغة وطاقاتها الإنفعالية ومخزونها التعبيري، الذي يؤثر بشكل مباشر في عملية التواصل اللغوي .

والهدف من الجهد التحليلي الكشف عن الحقيقة المستترة وراء الرموز المستعملة في عملية التواصل وهو جهد علاجي أولاً، أما ثانياً لإسدال الستار عن الأوهام التي عاشتها الإنسانية من خلال تمسكها بالبنى الفكرية الزائفة. وتجدر الإشارة الى أن التعامل مع الرموز على وفق زيفها ينتج وعياً زائفاً بها، ففي قلب الزيف يقبع اللامعنى .

فالإنسان وإن كان له وعياً إلا أن هذا الوعي لن يكتمل أن لم يكن مقروناً بفهمه للمعنى، الا أن الواقع يثبت العكس فالإنسان وان كان له وعياً إلا أن هذا الوعي ليس مقروناً بفهمه للمعنى، وهذا من نتائج فصل اللغة عن الواقع، فتكون المعاني اعتباطية وليست ذات صلة به

واذا كانت اللغة متحدة مع الواقع سيكون للتواصل اللغوي لغة سحرية قادرة على توجيه الافعال من خلال قوة الإقناع الذي يمتلكها للتأثير على الآخرين وبذلك تصبح للغة سيادة في الخطاب وعلى الأفعال أيضاً، أما اللغة التي لا يمكنها أن تبلغ صوتها فهي لغة عبودية. ولا تكمن عملية تحليل التواصل اللغوي بمعرفة العناصر التي يتألف منها وحسب، بل من طريقة التآلف بين العناصر وهو الأكثر أهمية. لأن في تلك الحالة قد يطفو التحليل على مجرى الحدث اليومي، وهذا ما ينأى بالفلسفة بعيداً عن غاياتها، ويلحق الموقف الفلسفي بالموقف النفسي والاجتماعي .

الهوامش:-

(١) اسماعيل، صلاح، التحليل اللغوي عند فلاسفة اوكسفورد، التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص٦

(٢) الكوثر، منذر، "فلسفة التحليل والبحث عن المعنى" الوضعية المنطقية عند آير، دار الحكمة، لندن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، ص١٤٩ .

(٣) اسماعيل، صلاح، التحليل اللغوي عند فلاسفة اوكسفورد، ص٥ .

(٤) Ayer, A. J. (Edited), Logical Positivism, The Free Press, United States of America, Second printing, ١٩٦٦, p.٣.

(٥) Price, Joan A. Philosophy U n d e r s t a n d i n g Contemporary Thought, Chelsea House, New York, ٢٠٠٨, p.٨١.

(٦) Copleston,Frederick, Contemporary philosophy Studies of Logical Positivism and Existentialism, p.٣.

(٧) Price, Joan A, Philosophy U n d e r s t a n d i n g Contemporary Thought, pp.٨١-٨٢.

(٨) Ayer, A. J . Language, Truth, and Logic,Penguin Books,UK,١٩٧١ , p.١٩٨.

(٩) آير، الفريد، الوضعية المنطقية وتركتها، حوار منشور ضمن كتاب رجال الفكر "مقدمة للفلسفة الغربية المعاصرة"، تحرير براين ماجي، ترجمة وتقديم نجيب حصادي، منشورات جامعة قاز يونس، بنغازي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨،، ص٢٥٤.

(١٠) أفاية، نور الدين، المتخيل والتواصل، دار المنتخب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص١٦٤ .

(١١) Ayer, A.J., What is Communication?, in Studies in Communication, A.J. Ayer& Others (Editors), Wariburg, London, ١٩٩٥. , p.١٣.

(١٢) IbId, p.١٢ .

(١٣) ما هو التواصل؟، جانين بوديشون، ترجمة عبد العالي مريني، مجلة فكر ونقد، المغرب، ص١.

(١٤) رشيد بوطيب مفهوم التواصل في الفلسفة : من الحقيقة إلى الاختلاف(هابرماس و لوهمان)، مجلة فكر ونقد، المغرب، ص١ .

(١٥) هوسرل، ادموند، فهم الاخر في التواصل اللساني ضمن (اللغة-دفاتر فلسفية)، ترجمة محمد سبيلا وآخرون، دار توبقال للنشر، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥، ص ٧١ .

(١٦) أفاية، نور الدين، المتخيل والتواصل، ص١٦٥ .

(١٧) لالاند، آندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، ترجمة خليل أحمد خليل، عويدات، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠١، ص١١٢ .

(١٨) Stevenson, Charles L., Facts and Values, Reprinted by Yale University, U S A, ١٩٦٣. , p. ١٨١ .

(١٩) Ayer, A.J. Language, Truth, and Logic , p. ٦٢ .

(٢٠) ينظر: آير، الفريد، الوضعية المنطقية وتركتها، ص٢٥٥.

(٢١) Stevenson, Charles L., Facts and Values, p ١٨٠.

(٢٢) Russell, Bertrand, The Basic Writings of Bertrand Russell, Edited by Robert E. Egner and Lester E. Denonn With an introduction by John G. Slater, First published in Routledge Classics ٢٠٠٩ , p.٧٩.

(٢٣) Appiah, Kwame Anthony, Thinking It Through: An Introduction to Contemporary Philosophy, Oxford University Press, ٢٠٠٣, p.٨٢.

(٢٤) Ayer, A. J. (Edited), Logical Positivism, p. ٢٣ .

(٢٥) C. K. Ogden and I. A. Richards, The Meaning of Meaning (London: Kegan Paul, Trench, Trubner & Co., Ltd.,١٩٢٣ ., p.١٠.

(٢٦) ينظر: بغورة، الزواوي، الفلسفة واللغة (نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة)، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص١٠٠ .

(٢٧) بوبر، كارل، بحثا عن عالم افضل، ترجمة احمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص٣٤-٣٥.

(٢٨) ينظر: راسل، برتراند، ما وراء المعنى والحقيقة، ترجمة محمد قدري عمارة، مراجعة، الهامي جلال عمارة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص٢٠٤ .

(٢٩) Russell, Bertrand, The Basic Writings of Bertrand Russell, p.١٠٣ .

(٣٠) ينظر: بغورة، الزواوي، الفلسفة واللغة، ص١٠٠ .

(٣١) فتجنشتاين، لودفيتج، تحقيقات فلسفية، ترجمة وتقديم وتعليق عبد الرزاق بنور، المنظمة العربية للترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٢٢٥ .

(٣٢) ينظر: روس، جاكلين، الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة عادل العوا، عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص٢٦.

(٣٣)) Stevenson, Charles L.,Ethics and Language, , p.٣٤ .

(٣٤) IbId , p.١٤ .

(٣٥) ينظر: أفاية، المتخيل والتواصل مفارقات في العرب والغرب، ص١٦٧ .

(٣٦) ما هو التواصل؟، جانين بوديشون، ترجمة عبد العالي مريني، ص١.

(٣٧)) Ayer, A.J., What is Communication, p.١٤

(٣٨)) IbId , p.٢٧.

(٣٩) ما هو التواصل؟، جانين بوديشون، ترجمة عبد العالي مريني، ص١.

(٤٠) Stevenson, Charles L., Facts and Values, p. ١٨١ .

(٤١) ينظر: أفاية، المتخيل والتواصل مفارقات في العرب والغرب، ص١٦٥ .

(٤٢) Stevenson, Charles L., Ethics and Language, p.٥٩ .

(٤٣) Parkinson, G.H.R. (Editor)& Others, An Encyclopaedia of Philosophy, Taylor & Francis, UK, ٢٠٠١, p.٢١٦.

(٤٤) Stevenson, Charles L., Ethics and Language, p.٤٢ .

(٤٥) Parkinson G.H.R. (Editor)& Others, An Encyclopaedia of Philosophy, p. ٢١٦ .

(٤٦) Stevenson, Charles L., The Emotive Meaning of Ethical Terms, Mind, New Series, Vol. ٤٦, No. ١٨١, Jan., ١٩٣٧, p.٢٢. (٤٧) Stevenson, Charles L.,Ethics and Language, p.٤٦ .

(٤٨) Ayer, A. J Identity and Reference, Language in Focus Foundations, Methods and System, Edited by Asakasher,D. Reidel, Publishing Company,USA, ١٩٧٦, p.٩.

(٤٩) Ayer,A.J., What is Communication?, p.٢١.

(٥٠) Stevenson, Charles L., Ethics and Language, p.٤٣ .

(٥١) IbId, p.٥٧ .

(٥٢) IbId , p.٥٧ .

(٥٣) ينظر: أفاية، المتخيل والتواصل مفارقات في العرب والغرب، ص١٦٥ .

(٥٤) Stevenson, Charles L., Ethics and Language, p.٥٦ .

(٥٥) IbId, p.٥٤ .

(٥٦) IbId , p.٤١ .

(٥٧) MacIntyre, Alasdair, A Short History of Ethics, Second edition, Notre Dame, IN: Notre Dame University Press, ١٩٩٨, p. ١٩٢ .

(٥٨) Stevenson, Charles L.,Ethics and Language, p.٦١ .

(٥٩) Ibid, p.٣٣ .

(٦٠) Ayer,A.J., What is Communication, p.١٦.

(٦١) IbId, p.٢١.

(٦٢) IbId, p.١٦.

(٦٣) IbId, p.١٦.

(٦٤) ينظر: آير، الفريد، حلقة فينا، ضمن كتاب ثورة البحث عن المعنى "مقالات في فلسفة القرن العشرين"، تحرير الفريد جولز آير، ترجمة فاتنه حمدي، دار الحكمة، لندن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص٨٥ .

(٦٥) Ayer,A.J., What is Communication, p.١٣.

(٦٦) IbId , p.١٣.